لغة الطفل العربى

دراسة فى اكتساب اللغة وتطورها

الجبالى، علاء .

لغة الطفل العربى؛ دراسة فى اكتساب اللغة وتطورها .- القاهرة : مكتبة الخانجى، ٢٠٠٣م، ٢٤٧ ص

د. قطب عبد العزيز بسيونى

كلية اللغات والترجمة - جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا .

تضم هذه الدراسة المتخصصة فى لغة الطفل تمهيداً، وثمانية فصول، وخاتمة تشكل ٢٤٧ صفحة من القطع الكبير، فضلا عما احتوته من ملاحق وقوائم للمراجع العربية والأجنبية .

أما الغاية منها فهى الكشف عن آليات اكتساب الطفل العربى للغته، وتحديد أطوار نموها، ورصد مكوناتها من ألفاظ، ودلالات، وبنية صرفية ونحوية، ومفاهيم معرفية فى ضوء البيئة الاجتماعية، وما تحتوية من قيم وأعراف دينية وعلمية .

وقد ظهرت الحاجة الملحة لمثل تلك الدراسة الدقيقة الشاملة بعد أن ركزت الدراسات السابقة جل اهتمامها على بعدين من أساسيات لغة الطفل هما : -

الأصوات، والألفاظ دون النظر إلى بقية المكونات المذكورة .

والدراسة بهذا المنهج الشمولى تؤسس قاعدة عريضة للانطلاق إلى آفاق أوسع وأرحب فى سيكولوجية لغة الطفل باعتبارها مكونا من أهم مكونات وجوده بعد أن غدت دراسة لغة الطفل من أهم محاور الدراسات الحديثة على جميع الأصعدة : العالمية والمحلية .

والكتاب «يعرض لتطور لغة الطفل العربى من الميلاد إلى التاسعة من العمر، وهو فى ذلك يقترب بدراسة اكتساب العربية كلغة أم، وبغيرها من اللغات الأخرى ، ويفيد من نظريات الاكتساب المعرفية الحديثة للغة فيجمع بين نتائجها النظرية وما تقدمه الدراسات من معلومات متفرقة حول الموضوع وذلك فى مستوى الأصوات والألفاظ من الميلاد حتى الرابعة من العمر. وأما من الخامسة حتى التاسعة من العمر؛ فإن الكتاب يقدم نتائج دراسات تجريبية مبدئية يحاول الباحث فيها أن يوجه الأنظار إلى جدوى الاهتمام بالصرف والنحو والمفاهيم المعرفية وهى المؤثرات الأكثر ثباتًا ودلالة على نحو لغة الطفل وتطورها خاصة بعد الرابعة من العمر .

وتبين هذه الدراسة طبيعة العلاقة بين نوع التعليم وتطور اللغة نوعًا وكمًا كما توضح التباين فى القدرات اللغوية وطبيعتها بين الذكور والإناث .‟ ص٦

الفصل الأول : ماهية لغة الطفل :

يعرض البحث فى هذا الفصل ماهية اللغة ، ونشأتها، وحيرة العلماء فى تفسيرها واجتهاداتهم فى الربط بين ظواهرها ومعتقدات إنسان ما قبل التاريخ، وهى تفسيرات لا تخلو من طرافة وحكمة. واللغة فى شكلها الأول ترجع إلى أصلين من أصول التعبير : الحركى واللسانى ، وهى أفعال إرادية واصطلاحية قبل الإشارات بالرأس والإصبع وغيرها من وسائل التعبير التى تشبه لغة الصم والبكم، أو تلك التى كان يلجأ إليها أفراد القبائل فى إفريقيا، والسكان الأصليون لأمريكا وأستراليا للتفاهم الصامت إما لبعد المسافة أو حفاظًا على سرية الاتصالات فى الحروب . وقد أدرك علماء اللغة أهمية العلاقة بين اللغة والحركة الجسدية منذ أن اتصلت الدراسات اللغوية بعلم الأنثروبولوجى .

هذا عن الشكل الأول بقسميه اللاإرادى والإرادى الاصطلاحى . أما الشكل الثانى للتعبير اللغوى الإنسانى وهو التعبير باللسان فإنه أكثر أهمية فى الوقت ذاته؛ نظرًا لما يحتوى عليه من أنظمة، وعلامات، ورموز صوتية ذات دلالة مشتركة بين الجماعة اللغوية؛ فاللغة إذًا مؤسسة رمزية تضع وحدات صوتية وخطية لتحل محل الأشياء والمعانى، أو فلنقل تسعى لاختزال وتحديد وتوضيح مرجعية العالم الخارجى، والعالم الذهنى، والروحى الداخلى للإنسان، وتعمل هذه الرموز من خلال علاقات تبادلية وترابطية. هذه العلاقات هى ما يعرف بالقواعد الصرفية التى تشكل بنية الوحدات المفردة والنحوية التى تؤسس بنية الوحدات التركيبية وعن طريق هذه المؤسسة الرمزية يصبح لدى الإنسان مادة ذهنية تصويرية يفكر بها، بل تصبح هى النسق الدال على عملية الممارسة الذهنية الإنسانية التى ترقى بالإنسان الفرد ومنظومة المجتمع. واللغة بذلك نظام عرفى له قواعد تحكمه وتنسقه، وتعيد تركيبه علامات ورموز بأشكال متجددة. ص٨

أما عن نشأة اللغة الأولى فللعلماء فيها تفسيرات خاصة؛ فمنهم من يرجع الأصل فى نشأة اللغة إلى الأساطير ، ومنهم من يستند إلى العقيدة، ومنهم من يركن إلى غريزة الإنسان أو تطوره البيولوجى فى مسيرة النشوء والارتقاء، أو يلجأ لجوانب محددة فى حياته النفسية والاجتماعية . وترى النظرية العقائدية أن اللغة الإنسانية مصدرها وحى إلهى كما ورد فى القرآن الكريم (وعلم آدم الأسماء كلها)، وفى سفر التكوين «من أن آدم وضع أسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول»، غير أن البعض من علماء اللغة لا يوافق على صحة هذه النظرية لكثرة اختلاف اللغات واللهجات والألفاظ والقواعد، ويروا أن الله خلق الإنسان مميزاً عن غيره من المخلوقات بما وهبه من ملكة اللغة .

وتذهب نظرية أخرى إلى تفسير نشأة اللغة على ضوء محاكاة الإنسان الأول لأصوات الطبيعة لتكوين مفهوم اللغة وصياغة بدايات كلماتها، وهذا ما ذهب إليه ابن جنى فى كتابه «الخصائص» ؛ حيث ذكر أن اللغة فى بدايتها تكونت من الأصوات المسموعة كدوى الريح، وطنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيح البغل، ثم تولدت اللغات من ذلك فيما بعد ، وبهذا أخذ كثير من علماء اللغة، ورأوا فى أصوات الطبيعة لغة إلهية؛ فالرعد صوت

عروض موقعة ـــ

الأصوات : «وبالنسبة لقواعد النظام الصوتى فإنها تتحقق فى مرحلتين : المرحلة الأولى ، ترصد أصوات اللغة وتصفها ، ويطلق على هذا الفرع علم الأصوات ، والمرحلة الثانية ، تختص بالتجريد واستنباط القواعد ، ويطلق عليها علم الصوتيات» ص ١٤

ويوضح المؤلف هذين البعدين، فيذكر أن علم الأصوات يرصد الأصوات اللغوية، ويصف سماتها السمعية والعضوية من حيث الدور الذى يؤديه الجهاز النطقى بوحداته المختلفة ، مثل: الفم، والشفاه، والأنف، والأسنان، واللهاة ، والحنجرة ، حيث إن هذه الأعضاء تمثل المخارج الأساسية للأصوات، ويترتب على طريقة أداء الصوت سماته البنائية من حيث الجهر والهمس، والانفجار، والاحتكاك، والترقيق، والتفخيم ، فالباء فى اللغة العربية حرف شفهى مجهور شديد مرقق. بينما القاف صوت انفجارى مما يلى الحلق (لهوى). وعلى النحو الوصفى تسير بقية الحروف.

أما المرحلة الثانية فهى مرحلة تجريد واستنباط قواعد . وهى ما يطلق عليها : الصوتيات: وتتمحور حول دراسة الأصوات من حيث العلل : منها القصير مثل: الضمة، والكسرة، والفتحة، ومنها الطويل، وهى أصوات المد : الواو، والياء، والألف، وإلى أصوات صحاح، وهى جميع الأصوات الأخرى فى العربية .

كما تدرس إعاقة مجرى الهواء بالفم، واهتزاز الأوتار الصوتية والتفخيم والترقيق، والفروق الصوتية ، والجهد والهمس ، فالأصوات الصحاح والعلل تكونان معًا مقاطع اللغة، وكل منها يلعب دورًا مهما فى بناء اللغة .

الإله وهو غاضب ، وحفيف الشجر صوته وهو راض وهكذا.

وعندما استقرت هذه العلاقة بين الصوت والمعنى عند الإنسان الأول ، أخذ يلتفت إلى ما حوله من أصوات الطير والحيوان والشجر وغيرها من عناصر الطبيعة؛ لذا نجد فى جميع لغات العالم ألفاظًا تستمد أصواتها ودلالاتها من أصوات وظواهر فى الطبيعة .

وتذهب بعض الآراء العلمية إلى أن اللغة غريزة فطرية فى الإنسان مثلها تمامًا مثل غريزة الطعام والمشى، وهى الدافع للتعبير بالأصوات عن انفعالاته الجسمية والوجدانية مما دفعه لمحاكات الطبيعة .

وترى المدرسة الدارونية أن لغة الإنسان فطرة تطورت أصواتها بتطور أجهزة النطق فسيولوجيا، ثم ارتقت إمكاناتها فى التعبير، وتعقدت تدريجيا بنمو قدرات الإنسان المعرفية وملكاته الفكرية بظهور نزعته إلى التجريد .

ويرى أصحاب المدرسة الاجتماعية أن اللغة ظاهرة اجتماعية نشأت لتلبية حاجات الإنسان النفسية والاجتماعية؛ لأنه مدفوع للتواصل مع بقية أفراد جماعته، والتعبير عن أفكاره، وانفعالاته، وعواطفه، ورغباته، ومن ثم فإن تطور اللغة مرهون بحاجة الإنسان للتواصل الجمعى.

وكل هذه النظريات- كما يراها المؤلف - اجتهادات محمودة؛ لأن اللغة فى طبيعتها معقدة وشائكة، إلا أن البحث اللغوى انصرف إلى مادة اللغة باعتبارها نظامًا صوتيا وتركيبيا ينتج دلاته .

ويسعى علم الصوتيات بالإضافة إلى ما سبق إلى تصنيف أصوات اللغة إلى أصوات رئيسية وفرعية واستبدال فونيم بآخر لإنتاج معنى مغاير. وظواهر النغم مثل النبر وانتقاله، وموسيقى الكلام، وظواهر التأثيرات المتبادلة بين الأصوات المتجاورة مثل المماثلة والإدغام والمخالفة وغيرها.

* **الصرف** : وهو يعنى بدراسة بنية الوحدة الدالة الصغرى ، أو بنية الكلمة ، والصيغ المتعددة للمادة اللغوية بأوزانها وأساليب اشتقاقها ونحتها ، وعلاقة ذلك بالمدلولات المتعددة اللفظ، ويطلق علماء اللغة مصطلح (مورفيم) على الوحدة البنائية التى تؤدى معنى دلاليا أو نحويا فى بناء الكلمة . مثل (رجل)، أو يدخل فى تركيب مثل التثنية (رجلان) .

* **النحو** : وهو فرع يختص بأساليب نظم أو الوحدات اللغوية فى نسق تركيبى يؤدى إلى إنتاج الجملة المفيدة . كما يدرس العلاقات المتبادلة بين المبنى والمعنى، ومجموعة المعانى النحوية العامة كالخبر والإثبات والنفى ، والمعانى النحوية الخاصة كالحالية، والفاعلية، والمفعولية، والإضافة، وعلاقة الإسناد والتخصيص، والنسبة، والتبعية. والمقابلات بين أفراد كل عنصر وغيره مثل الفعل فى مقابل الاسم، والاسم المرفوع فى مقابل الاسم المنصوب، والفعل المتعدى فى مقابل اللازم، والخبر فى مقابل الإنشاء إلى آخره .

* **المعجم** : والمعجم كما يصفه (دى سوسير) هو المعين الصامت فى اللغة حيث يختزن المجتمع الإنسانى اللغوى تجاربه عبر السنين ، ويسجلها على شكل قوائم مفردات لا تأخذ فاعليتها إلا إذا نطقناها فنخرج بها حينئذ من حيز اللغة إلى نطاق الكلام ص٢٠ .

بالإضافة إلى هذه الأنظمة المذكورة، والتى أفاض فيها الكتاب شرحًا، وتفصيلا، وتحليلا، واستقصاءً، هناك عناوين أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها فى الدرس اللغوى لا يتسع المقام لعرضها مثل : الشيوع والحمل الوظيفى، وأنواع القواعد اللغوية ، واللغة دالة الفكر، واللغة عماد القومية ، واللغة والقيمة الاجتماعية، والسليقة والأداء وسمات اللغة الإنسانية .

الفصل الثانى : اللغة والدماغ :

يعرض هذا الفصل للعلاقة بين اللغة باعتبارها نشاطًا ذهنيًا، والجهاز الذى يبث ما يدور داخله من أفكار وتصورات، كما يربط المؤلف بين الرقى العقلى للإنسان ونشاطه التعبيرى ، فكلما ارتقى الإنسان فى سلم المعرفة والحضارة ازدادت قدرته اللغوية وتحسن منطقه؛ ولذا نجد المبدعين من الشعراء والكتاب أرقى ذهنيًا وفكريًا ووجدانيًا من بقية أبناء مجتمعاتهم ويعود هذا إلى نشاطهم اللغوى .

وقد دعا هذا الأمر العلماء للنظر فى ماهية العلاقة بين اللغة باعتبارها محتوى الفكر ، و الدماغ باعتباره مركز العملية الذهنية، وهذا ما اجتمع عليه علماء الطب والنفس واللغة فى دراسة واحدة فى كشف تلك العلاقة الغامضة، وبدءوا يحصلون على معلومات مهمة إما من خلال تسجيل نشاط الدماغ وهو ما يقوم بمهام لغوية، وذلك من خلال بيانات فسيولوجية كهربية أو عن طريق ملاحظة التأثيرات

بعروض موقعة ـــ

أما دوافع اكتساب اللغة فيرى العلماء أن تعلم الطفل اللغة جزء طبيعى من نموه البيولوجى مثل مضغ الطعام والمشى كما يرى بعضهم أن الرغبة فى اكتساب الطفل للغة هو التعبير عن ذاتيته ومشاعره ووجدانه وتلبية احتياجاته للتواصل الاجتماعى .

أما آلية اللغة عند الطفل فيرى علماء النفس أن لدى الأطفال آلية دماغية موروثة يطلقون عليها اسم الجهاز الفطرى لاكتساب اللغة أو الآلية وهذا ما لوحظ عند الأطفال جميعًا ، حيث يكتسبون اللغة فطريًا بشكل متدرج . وأول ما يكتسب الطفل من لغته دلالة النغمات وتشترك فيها كل لغات العالم كما يكتسب الطقل صيغ المفرد قبل صيغ الجمع والألفاظ فى شكلها المجرد قبل إضافة اللواصق إليها .

وفى اكتسابه يلتقط ما يستطيع توظيفه واستخدامه فى كثير من المواقف وهو موقف نفعى تمامًا؛ إذ إن الطفل ينتقى من اللغة أولا تلك العناصر التى يحتاجها لتلبية رغباته، كما أنه يصدر هذه العناصر اللغوية فى أبسط صورها بحسب قدراته .

كما يعرض الباحث لعناوين مهمة مثل: تفعيل الآلية ، ومنطق الآلية اللغوية، والعوامل المساندة ، والمحاكاة، والتصحيح، والاستحسان ، والدخل اللغوى ولغة الأمومة، ونطق الكلام، والمعانى، والألفاظ، وبناء الجملة، والحوار ، والعوامل الخارجية المساعدة، والتطور المعرفى، وآليات الفهم. وكلها تحتاج إلى قراءة متأنية لما تحتويه من ثراء وخصوبة فى آلية اكتساب اللغة عند الأطفال .

السلبية لحالات المرضى بأمراض العقل فى نشاطهم اللغوى المضطرب .

وهنا يتعرض البحث لتفاصيل دقيقة، وتجارب العلماء العملية والسلوكية والتجريبية لرصد ما يجرى من نشاط كهربى فى الدماغ وتأثيراته على عملية النطق والكلام . كما يتعرض لدراسة القشرة المخية لتحديد المنطقة المسئولة عن الأداء اللغوى مسترشداً بآراء دارون بأن الدماغ قد تطور بيولوجيا ليبلغ التطور ذروته عند الإنسان. وبمضى البحث فى طريق تشريح الدماغ، ووصف أجزائه ومكوناته، ورصد إنجازات العلماء فى هذا الميدان ليبتعد عن قضية اللغة بأميال ثم يربط فى نهاية الفصل بين اللغة وتلك العمليات المعقدة، ويصنف اضطرابات اللغة فى التعبير والاستقبال، والحركة، والقدرة الحسابية، والكتابة ، والقراءة، والتعرف على الألوان، والأدوات، والحس، والاكتئاب، والأنغام، وغيرها من أنشطة حركية، وحسية، وتعبيرية فى مصنفات وقوائم؛ ليخلص البحث إلى تصور شمولى وإدراكى لما يدور فى الدماغ من عمليات عضوية أثناء التفاعل اللغوى؛ نطقًا، وكتابة، وتفكيرًا .

الفصل الثالث : آليات اكتساب اللغة :

يقارن البحث بين اكتساب اللغة وتعلمها ، ويعرف الاكتساب بأنه عملية فطرية يقوم بها الطفل بصورة عضوية، وفى سياق غير رسمى باكتساب اللغة وبممارستها دون أن يكون واعيا بقواعدها أو بمصطلحاتها . أما التعليم فهو عملية اختيارية يعتمد فيها المتعلم على تحصيل اللغة وغالبا ما يتم هذا التحصيل فى سياق رسمى .

الفصل الرابع : مراحل تطور لغة الطفل :

يكتسب الطفل بمرور الوقت اللغة وعلى مراحل متعاقبة ، ترتقى كل مرحلة منها تدريجيا وتزيد من قدرة الطفل على التواصل مع قومه حتى يصبح لغته لغة مكتملة تماثل لغة الكبار ؛ وعادة ما تبدأ اللغة عند الطفل بتصويتات مبهمة ورطانة غير مفهومة ، ثم تتطور بمرور الوقت ، وترتقى إلى أن تصل إلى مراحل التجريد والإبداع .

ويعتمد علماء اللغة والنفس فى هذا المصدر على طريقتين أساسيتين ؛ أولاهما: طريقة الملاحظة الطبيعية، وفيها يرصد اللغويون ما ينطق به الطفل ويسجلونه، ويلاحظون تطوره فى سجل يومى يقوم فيه الباحث بتسجيل نشاط الطفل ونموه اللغوى يومياً . والثانية: هى الطريقة التجريبية ، وتتم عن طريق الاختبارات إما لاستنباط مستوى الطفل اللغوى الخاص بظاهرة لغوية معينة أو لجمع مادة لغوية لقياس قدرة الفهم على إصدار اللغة بشكل عام فى مراحل العمر المختلفة ، وتسمح طريقة التجريب لنا بمقارنة لغة الأطفال فى أعمار مختلفة بحيث تمثل نتائج كل مجموعة رصداً لمرحلة معينة فى تطور لغة الطفل .

وفى تطور لغة الطفل أيضاً نجد المرحلة الأولى تسجل الصراخ، ثم المناغاة، ثم التعتعة وأشباه الكلمات، وهى أصوات غير لغوية محددة، ثم يتطور المنطوق لدى الطفل فيكتسب الألفاظ والمعانى، ثم الجمل القصيرة السهلة، ثم تتعقد بنية اللغة شيئًا فشيئًا تبعاً للبيئة الثقافية حتى يصل إلى المجاز .

ويمضى بنا الكتاب فى تفاصيل دقيقة غاية فى الاستقصاء والتحليل المبنى على التجارب والملاحظات العلمية المجربة ليصل إلى:

الفصل الخامس: الذى يتوقف عند «اكتساب دلالة الألفاظ والقواعد» وهى مرحلة التكوين الفعلى للغة الطفل، فنرى الباحث يعلل هذا الاكتساب ويرجعه إلى طبيعة البنية العقلية للطفل، ودرجة تفعيل آليات اكتساب اللغة لديه ، ودرجة النضج التى ترتبط بمراحل محددة فى حياته، بالإضافة إلى العوامل النفسية المؤثرة والمجتمع الذى يتفاعل معه .

وهنا يصل البحث إلى سؤال هام، وهو كيفية الربط بين الرمز المرموز إليه أو الدال والمدلول ؟ وفى استعراضه للإجابة عن هذا السؤال يتشعب الحديث حول نظريات العلماء فى كشف تلك العلاقة. فيرى بعضهم بآلية الربط الشرطى بين الدال والمدلول، ويشير هذا المفهوم إلى ربط الطفل شرطياً بين سماعه أصوات لفظ ما ووجود مدلوله، فالطفل يلاحظ أن نغمة معينة ترتبط بغضب الأم أو سعادتها ، وغيرها ترتبط بالطعام والشراب، وكلمة « بابا» ترتبط بوجود الأب، وكلمة «ماما» ترتبط بوجود الأم وهكذا ، وفى هذه المرحلة يقوم الطفل بالمواءمة بين الدال الصوتى والمدلول؛ ولذا يحاول اكتساب اللغة عامة، وفى جميع مستوياتها من أصوات، وألفاظ، وصيغ صرفيه وتراكيب نحوية .

أما دلالة اكتساب القواعد ، وهو ما يحكم اللغة فى مختلف مستوياتها من أصوات وصرف ونحو، فإن الطفل يتعامل مع الجملة التى يعرف

قواعدها ومفرداتها كما يتعامل معها الراشد ، أما عندما يستمع الطفل لجملة لا يعرف نحوها، ولكنه يعرف بعض ألفاظها فإنه يتعامل مع هذه الجملة كحدث لغوى أكثر منه حدثا دلاليا أو تواصليا ، فيحاول معرفة الألفاظ الجديدة بها ، وما يعرفه من قواعد نحو اللغة وصرفها حتى يصل إلى تفسير دلالى يكون أقرب إلى المعنى معتمداً على التخمين والسياق، ودلالة الألفاظ المعروفة لديه فى الجملة .

ويمضى البحث فى هذا الفصل ليعرض لمحاور أساسية فى الدراسة مثل عدد المفاتيح اللغوية، وتحديد أقسام الكلام ، ومنظور دلالى للمواءمة، وآلية تنمية الدلالة، وتنمية اللغة والمعرفة، ودور الدخل اللغوى وغيرها، وفى كل محور يفصل القول فى اكتساب اللغة لدى الطفل فى تلك المرحلة مستعينا بالنظريات الحديثة، وتجارب العلماء، ونتائج البحوث السابقة، ومضيفاً إليها خلاصة تجربته ونظرته الفاحصة .

أما الفصل السادس، وعنوانه **اللغة بين الثانية والخامسة** ؛ فيتحدث عن سبل تطوير لغة الطفل، والباحث يذكر أن هناك عمليات معقدة تجرى فى عقل الطفل من شأنها أن توصله فى النهاية إلى تميز كل مفردة عن غيرها من المفردات. أما عندما تواجه الطفل كلمة جديدة لا يعرفها فإنه يقوم بعدة عمليات لغوية وإدراكية لتفسير هذه الكلمة ولتحديد صفاتها اللغوية ، منها تحديد لفظ الكلمة وذلك بفصلها عن سياقها اللغوى، ثم يقوم بتحليل العلاقات النحوية والصرفية بين هذه الكلمة وباقى كلمات الجملة وأجزائها حتى يتمكن من تحديد أصل الكلمة وميزانها الصرفى، ثم يتعرف على الزوائد الملحقة بها، ثم يحدد المعانى المحتملة لهذه الكلمة بالاعتماد على أنواع الفئات الدلالية التى رصدها من قبل؛ حتى يتسنى له تحديد معنى الكلمة الجديدة وعلاقتها بين الألفاظ، وهى الفئات الخاصة بالأشياء، والأفعال، والأحداث، والعلاقات، والصفات .

وهذه العمليات تتداخل أجزاؤها وتتكامل حتى ينجح الطفل، ويصل إلى فرضية أولية عن صفات هذه الكلمة، ومعانيها المحتملة .

وفى مجال تطوير الدلالة فإنه يواجه صعوبة عندما يتعرض لمواقف لا توازى قدرته فى إصدار اللغة لما يريد التعبير عنه ؛ لأن حصيلة الألفاظ لديه أقل من الراشدين حوله، ولذا يلجأ إلى اختيار كلمة ترتبط دلاليا ووظيفياً بالشىء أو الفكرة التى يريد التعبير عنها . وكما استخدم الأسماء يستخدم الأفعال عندما تسعفه حصيلة من الألفاظ ، أو توليد كلمات جديدة خاصة به أو التقابل والمطابقة والمنظور .

وفى لغة المجاز يقول الكتاب : يبدأ الطفل فى استخدام التعبيرات المجازية قبل سن خمس أو ست سنوات .. فى سياق غنى بالمعانى والدلالات مثل القصص والحكايات التى يكون لها تأثير جيد على اكتسابه التعبير ، ويتعلم الطفل فى هذه المرحلة أنه يمكن استخدام اللغة مجازيا ، حيث إن التعبير قد يستخدم بوصفه استعارة بعد أن يكون قادراً على تمييز الدلالة الأصلية للشىء قبل استخدامه مجازياً .

وفى أنواع الكلمات التى يكتسبها الطفل يشير الكتاب إلى أن الطفل يكتسب الأسماء أولاً، وتليها الأفعال، ثم الحروف، وتمثل الأسماء النسبة الغالبة مما ينتجه حتى تبلغ حصيلته خمسين كلمة، وحينما تتوازن نسبة الأسماء إلى الأفعال فيما ينتجه الطفل من كلمات جديدة . ومع تقدم الطفل فى العمر تزداد حصيلته من الألفاظ التى تعبر عن معان مجردة إلى أن يصل متوسطها إلى ١٣٪ من مجمل حصيلة الألفاظ فى نهاية الخامسة من عمره.

وفى مجال الفروق بين الجنسين (البنات والبنين) تشير الدراسة إلى أن لغة البنات تفوق لغة البنين نوعاً وكماً فى كل مراحل نمو اللغة حتى سن السادسة، فالبنات حتى هذه المرحلة العمرية تكون حصيلة ألفاظهن على سبيل المثال أكبر من نظرائهن من البنين بصفة عامة. وليس هذا هو الفرق الوحيد بين لغة الجنسين فى هذه المرحلة العمرية، فهناك فروق أخرى نوعية تتعلق بماهية الألفاظ المكتسبة وأساليب استخدامها ، فالبنات يتجهن إلى اكتساب بعض المفاهيم الدلالية والألفاظ التى تدل عليها بصورة أسرع، وبشكل أدق من البنين، ومن ذلك: الأسماء، والألوان، والصفات، وأعضاء الجسم ، وكذلك الأسماء التى تدل على أشياء ومعان مجردة ومنها: أسماء المصادر، وأسماء الذات، وظروف الزمان .

الفصل السابع : بين الخامسة والتاسعة .

مع بلوغ الطفل الخامسة من عمره يبدأ الطفل فى الخروج من دائرة الأسرة الصغيرة إلى التفاعل مع المجتمع بشكل واسع، وتتعدد المصادر التى يستقى منها المعارف واللغة، ويتزامن كل هذا مع بدء التحاقه بمؤسسات التعليم الرسمى سواء دور الحضانة أو المدارس الابتدائية، أو ما يرتبط بذلك من متغيرات اجتماعية ونفسية ولغوية، ومن أهمها أن الطفل يأخذ كذلك فى التعامل بشكل مكثف وصريح مع اللغة المكتوبة ومع الفصحى .

ولأن الدراسة فى تلك المرحلة بين الخامسة والتاسعة من الأهمية بمكان استوجب البحث أن تكون عملية ميدانية لرصد النحو والصرف وما يواكبهما من مفاهيم معرفية لكى تكون نتائج هذه الدراسة لبنة أولى يعتمد عليها فى الاستدلال على تطور لغة الطفل فى هذه المرحلة الحرجة ويبنى عليها الباحثون من بعدها. كما تهدف الدراسة الميداينة إلى إرساء معيار لغوى مقنن للغة الطفل العربى لقياس تطور هذه اللغة فى كل مرحلة عمرية بين الخامسة والتاسعة من حياته، للاسترشاد بها فى تعلمه مختلف المعارف، وكذا مساعدة الطفل فى التغلب على ما يواجهه من صعاب.

وهى دراسة كما عرضها الكتاب مفصلة تفصيلاً دقيقاً من حيث أهداف البحث، ومشكلة الدراسة، ومناهجها، وأدواتها، وعينتها، وجمع مادتها اللغوية، وإجراءات الرصد، والتحليل الذى قام على رصد الأسماء، والجمل المكونة منها نحو : المفرد، والمثنى، والجمع، والمبنى، والمعرب، والمذكر، والمؤنث، والمعرف بأل، والضمير، والموصول، والإشارة، والعلم، والتفضيل، والمبالغة، والمكان، والزمان، والآلة، والضمير (المتكلم، والمخاطب، والغائب)، وجمع المذكر والمؤنث السالم، والأسماء الخمسة، والنسب،

والتصغير، والمقصور، والمنقوص، والممدود ... إلخ

فى مجال رصد الفعل نرى الناقص والتام، والماضى والمضارع والأمر، واللازم والمتعدى، والمعلوم والمجهول، والفاعل المستتر والظاهر، والمتعدى لمفعول أو مفعولين، والثلاثى المجرد والمزيد، والرباعى المجرد والمزيد، والصحيح والمعتل، واسم الفاعل، ونفى الماضى والمضارع. ومجال الحرف، ثم رصد الجر والقسم، والعطف، ولا النافية، والجملة الاسمية والفعلية والشرطية. وفى مجال رصد المفاهيم المعرفية أى تحديد الدلالة المعرفية ترتبط بالتراكيب النحوية والصرفية التى تم رصدها فى حديث الطفل . فقد توقف البحث عند الوجود الذى يشير إلى إدراك الطفل لوجود الشىء الملموس، أو الفكرة المجردة، الملكية مثل (كرة أحمد)، و (صاحب على) والعدد والجنس والحدث، وهو ما يربط بالفعل، والنفى، والسؤال، والأمر .

وهذا الفصل من أهم فصول الدراسة لما يحتويه من تقسيمات، وتفريعات، واستقصاء، ونتائج تحتاج إلى مراجعتها فى هذا السفر العظيم .

الفصل الثامن : الفصحى وصعوبة التعلم .

فى المرحلة العمرية التى تبدأ عند الطفل من الخامسة إلى التاسعة يبدأ فى اكتسابه اللغة الفصحى والتفاعل معها بشكل مكثف، كما تتضح الصعوبات الإدراكية للغة فى التعلم واكتساب المعارف .

والطفل العربى كأى طفل فى العالم ينشأ فى بيئة لغته الأم، واللغة الأم فى واقع البلاد العربية المعاصرة دون استثناء هى الدارجة أو العامية، وكل دارجة لها نظامها اللغوى الخاص بها، ولها معجمها، ولها عادتها المنفردة التى تحكم التعامل الاجتماعى بها وتنظمه وعندما يبدأ الطفل فى الاحتكاك فى المدرسة بالفصحى بشكل مباشر، فإنه يجد نفسه فجأة إزاء شكل مختلف من أشكال العربية، هو شكل يختص كذلك بدوره بنظامه اللغوى، وبمعجمه، وبعرفه الاجتماعى الذى ينظم قواعد استخدامه.

وكلها عناصر لغوية قد تتفق مع لغة الأم، وقد تختلف، غير أن كلا منها يظل من وجهة نظر علم اللغة الحديث نظاماً لغوياً قائماً بذاته، ويعبر عن جماعة لغوية بعينها، ومن ثم فإن الفصحى وخاصة ما يتعلق فيها بالتراث تعبر عن ثقافة تختلف اختلافًا جذريًا عن ثقافة الطفل المعاصر ، وهذا ما يتضح فى الموضوعات، والشخصيات، والأحداث التى لا يتفاعل معها الطفل، كما أن كثيراً من الصعوبات التى تواجه الطفل تعود إلى افتراض المعلمين وواضعى المناهج أن الفصحى والدارجة جزآن من نظام لغوى واحد .

ففى مستوى الأصوات يجد الطفل صعوبة فى اكتساب بعضها من الفصحى ولا يجدها فى عاميته مثل القاف والثاء والذال، وترجع تلك الصعوبة فى نظر البحث عند الطفل المصرى لا لإصدارها ولكن لانتمائها إلى نسق صوتى خاص بالفصحى لا يماثل نسق العامية، ومع ذلك تقدم له هذه الأصوات وكأنها جزء لا يتجزأ من نسق الأصوات العامية .

وكذلك فى مستوى الألفاظ، فالصعوبة تكمن ليس فى النطق، ولكن فى كونها بدائل

لألفاظ عامية لها الدلالة نفسها مثل (جزمة)، و(حذاء)، و (فستان)، و (ثوب) .. إلخ . كما يكمن وجه الصعوبة الحقيقى فى إحساس الطفل بالغربة نحو الكثير من ألفاظ الفصحى التى تعبر عن أشياء وظواهر لا يألفها فى بيئته المباشرة . ومن ذلك (العاديات)، و (الغضنفر)، وغير ذلك مما يفرضه منهج الدراسة .

وعلى مستوى النحو والصرف نجد كتب الدراسة تقدم للطفل موضوعات ومسائل لا يشعر بالحاجة إليها مثل: الاستثناء، والتمييز، والعدد ، والممنوع من الصرف، والإعلال، والإبدال، وغيرها. كما أن كتب اللغة لا تراعى لغة الطفل الأم التى يتعامل بها مع الفصحى، فالفصحى تقدم الفعل الماضى أولا يليه المضارع رغم أن الطفل يكتسب المضارع أولا بشكل وظيفى .

كما يذكر البحث عن طريق الملاحظة أن امتلاك ناصيتى العامية والفصحى يكسب الطفل ثراءً لغويا، ويفتح له مجال التعبير عن ذاته فى شتى المواقف؛ الحياتى والرسمى، وهذا ممكن إذا قدمت له هذه الغاية؛ لأنها لا تراعى معطيات الطفل اللغوية والإدراكية والمعرفية، ولا تمده بمادة لغوية متكاملة ولا تعينه على اكتساب الفصحى بيسر فى إطار وظيفى .

كما يزيد الأمر صعوبة ما يلمسه الطفل من تناقض واضح بين لغة الفصحى التى يجلبها المجتمع ولغة الإعلام التى لا تلقى للفصحى اهتمامًا، فيصيب الفصحى ٨٪ من لغة الإعلام اليومية على مدار ٢٤ساعة، وانحصرت فى قضايا لا دخل للطفل بها من قريب أو بعيد، ولا تمكنه من التفاعل معها مثل نشرة الأخبار والتعليق عليها . أما الأغانى والقصص والمسلسلات وغيرها من البرامج التى يمكن للطفل أن يتفاعل معها فكلها بالعامية، وكذلك مجلات الأطفال بالعامية .

وعن المعيار اللغوى وصعوبة التعلم يذكر البحث أن الدول المتقدمة وضعت معايير مقننة لتحديد كفاءة الطفل اللغوية كما وكيفًا فى المراحل العمرية المختلفة، وتجدد ذلك فى الانجليزية والفرنسية والإيطالية وغيرها، وتستخدم هذه المعايير فى التعرف على تحديات الاكتساب اللغوى لدى الطفل، وتحديد ما تسببه هذه التحديات من صعوبات فى التعلم بشكل عام، وتحديد أسباب الصعوبات التى تنتج عن مشكلات لغوية فى طبيعتها أو تعود لقصور فى قدرات الطفل الإدراكية والمعرفية وإن أخذت شكلاً لغويًا فى ظاهرها .

أما فى اللغة العربية فلا توجد معايير ثابتة لقياس الكفاءة اللغوية والإدراكية لدى الطفل العربى ولا يوجد مجال للتعرف على أوجه القصور فى إمكانات الطفل المعرفية، والقدرة على التعلم وتوظيف ما يتعلمه، وبالتالى لا يوجد برنامج علاجى لحالات القصور اللغوى لعدم وجود المعايير الضابطة لتلك الصعوبات، وعلى هذا لا يمكن تحديد كل هذا دون معيار للكفاءة اللغوية والمعرفية يستخدم كأداة لقياس مدى التطور اللغوى والمعرفى للطفل بالمقارنة مع أقرانه فى نفس بيئته؛ ولذا لا يستطيع الباحث الآن فى غيبة أدوات القياس المعيارية للغة الطفل العربى أن يعرف بصور دقيقة أو علمية ما إذا كان تطور اللغة لدى طفل طبيعيًا، أو أقل من أقرانه فيساعده أو أفضل من أقرانه فيشجعه ولا يستطيع كذلك أن

يقرر صعوبات التعلم التى يواجهها الطفل، وارتباطها أو عدم اتباطها بالتطور اللغوى أو الإدراكى أو الاثنين معًا .

وتشير الدراسة إلى أن كثيرًا من الأطفال يقتربون من مستوى التحصيل المدرسى المنشود بدرجات مختلفة، إلا أن القليل منهم يعتبر مستوى تحصيلهم غير مقبول ، وبعض هؤلاء القلة لا يقدر على اكتساب المهارات أو تحصيل المعلومات بصورة مرضية؛ لأن قدراتهم الإدراكية لا تسمح لهم بهذا، فى حين أن البعض الآخر قد لا يستطيع إنجاز ما ينبغى إنجازه بسبب ما قد يعانونه من بعض الاضطرابات الوجدانية أو المشاكل البيئية، وهناك فئة ثالثة من ضعيفى التحصيل قد يعانى أفرادها من صعوبات فى التعلم من جراء قصور فى الجهاز العصبى يؤثر سلبًا على قدراتهم التعليمية، ويجعلهم يعانون من صعوبات فى السمع، أو النطق، أو القراءة، أو الاستيعاب، أو فى إجراء العمليات الحسابية. وكثيرًا ما يكون الأطفال فى هذه الفئة الثالثة ضعافًا فى التركيز، وقد يقلبون أشكال الحروف والأرقام أو يعكسونها، وهم غالبا غير منظمين، وتكون أفكارهم مشوشة، وخطهم رديئًا، ولا يتصف ما يؤدونه من أعمال بالإتقان، ولا يجيدون المهارات اليدوية، وقد يخلطون فى المعانى الدلالية لكلمات مثل: (الأمس)، و(غدًا)، و(اليوم)، وكل هؤلاء يعانون من مشاكل فى التعلم، ويواجهون كذلك مشاكل فى اكتساب اللغة أو فهمها أو استخدامها استخداما فعالاً . وما هذه الأمثلة إلا نماذج قليلة لأغراض كثيرة تأخذ فيها صعوبات التعلم الإدراكية شكلاً لغويًا .

ويقرر البحث أيضًا أن دراسة بنية اللغة ووظيفتها تكاد فى كثير من النواحى تكون فى تعقيد دراسة الجسم البشرى . فاللغوى لا يستطيع أن يلمس فى هذا النسق المعقد من اللغة، إلا بعض مكوناته فقط، وليس بإمكانه أن يخضعه للمنهج التجريبى فى البحث إلا بصعوبة بالغة. ولكى تحدَّد خللاً لغويا وطريقة علاجه فإنه ينبغى أن يكون لدى الباحث خلفية عن نظام هذه اللغة سواء أكان ذلك فى آلية النطق وقواعده، أم في قواعد النحو والصرف والمفردات أم كيفية مساهمة الأجزاء بعضها وكلها فى وظيفة اللغة . ولسوء الحظ فإن معرفتنا باللغة المعيارية للأطفال الناطقين باللغة العربية معرفة منقوصة، فتلك المؤلفات الضخمة فى قواعد النحو والصرف يقتصر هدفها على إملاء وفرض ما ينبغى أن تكون عليه اللغة العربية فحسب، ولا تستهدف واقع خصائصها ومميزاتها كما تجرى به على ألسنة المعاصرين من أبنائها .

ويفيد المعيار اللغوى المتقن كذلك فى جانب التعليم فيما يتطلع إليه رجال التربية، وهو تسهيل عملية التعليم لدى الطفل، وتحسين قدراته وملكاته على تحقيق النجاح بأيسر السبل فى حياته العلمية، وفى دراسته الأكاديمية معًا، ومن ثم تسعى المناهج الدراسية، وأساليب التعليم جميعها إلى تنمية المهارات المعرفية واللغوية اللازمة للطفل وتعزيزها؛ لكى يتحقق هذا الهدف المنشود. وحين يقوم الباحثون بتقويم قدرات الطفل، أو الصعوبات التى يواجهها فى اكتساب المهارات، فإنهم يجدون أنفسهم بصدد اتخاذ قرارات وتوصيات هامة قد يكون لها نتائج بعيدة الأثر على المعنى بالتقويم .

ولذا ينبغى أن تتضافر جهود البحث العلمى فى إيجاد معايير دقيقة وشاملة لنواحى القصور اللغوية والتعليمية أو المعرفية لدى الطفل ولقدراته على اكتساب المهارات المتوقع اكتسابها عادة من طفل فى مثل عمره فى المجتمع والبيئة نفسهما.

وبعد، فهذا قليل من كثير عرضت له الدراسة بالتحليل، والوصف، والمقارنة، والتجريب، عن لغة الطفل من الميلاد إلى التاسعة، وهى الفترة التى يكتسب فيها الطفل أهم مهارات اللغة ومكوناتها وتنميتها . فضلاً عما سجلته تلك الدراسة الرائدة من ملاحق، وجداول إحصائية، ونماذج لغوية، وصعوبات . وهى بهذا التكامل المنهجى تعد من أفضل الدراسات التى يعتمد عليها فى البحث اللغوى الذى أصبح من أصول أدبيات العصر الحديث ولا أجد كلاماً أقوله فى وصف السلاسة اللغوية والتركيز على الحقائق الموضوعية والتعبيرات المنهجية التى عرضت للموضوع طوليا ورأسياً، تاريخياً وموضوعياً فى ضوء الدراسات اللغوية المعاصرة . شكراً لصاحب هذه الرسالة الذى أضاء شمعة فى نهاية نفق طويل يهتدى بها من كانت لديه الرغبة فى مواصلة البحث اللغوى على نحو علمى ومنهجى دقيق . ولا شك أن أصداء هذه الدراسة سوف تسمع فى كل ردهات الحقول الدراسية المعنية بالبحث الجاد فى مشكلات اللغة العربية ومستقبل الطفل العربى الذى تراهن على مستقبله فى تغير وجه الحياة نحو الأفضل .

وإذا كانت هذه العجالة قد عرضت هذا البحث المتميز بأمانة وصدق ، فإنها ترجو أن يواكب الاطلاع عليها، وقراءتها، والإفادة منها كل ما بذل فيها من جهد مخلص يدركه القارئ والمتصفح لها دون أدنى عناء . تحية للباحث الجاد، وتقديراً لعمله المتميز .